

295649 - حزن يعقوب عليه السلام، هل يخالف الرضا؟

السؤال

يقول بعض أهل العلم: إن الدرجة التي فوق الصبر هي درجة الرضا؛ وأنه من وصل إلى درجة الرضا كان سواء عنده وقوع المصيبة أو عدم وقوعها؛ لأن راض رضا تاما بقضاء الله وقدره، فلا يحزن، ولا يجزع، ولكن هناك إشكال في هذا القول، والإشكال هنا هو: أن النبي الله يعقوب أبىضت عيناه من الحزن عندما ابتلاه الله بفقدان يوسف عليه السلام، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام تأثر تأثرا كبيرا بما ابتلاه الله به، ولا يمكن أن يقول أحد أن وقوع المصيبة أو عدم وقوعها هنا كانت سواء عنده، وفي نفس الوقت لا يمكن أن يقول أحد أن النبي الله يعقوب ليس براض بما قضاه الله، فما الجواب على هذا الإشكال؟

الإجابة المفصلة

الرضا بقضاء الله وقدره الجاري على العبد بخلاف ما تحبه نفسه وتهواه هو من العبادات المستحبة، ومن المقامات العالية لأهل الإيمان

قال ابن القيم رحمة الله تعالى:

"والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه. ولا يدخل تحت اختياره - مستحب. وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان. وهذا كالمرض والفقير، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك".

انتهى من "مدارج السالكين" (3 / 1930 - 1931).

والرضا أعلى من الصبر، فهو صبر وزيادة؛ لأن الصابر يمسك نفسه عن التسخط والشكوى، مع أن قلبه قلق يتمنى لو أنه لم ينزل به هذا البلاء.

أما الراضي، فمع إمساكه لنفسه عن التسخط والشكوى؛ فهو مطمئن القلب، منشرح الصدر بهذا القضاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى:

"والصبر" واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله.

و"الرضا" قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح.

وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها، حيث جعلها سببا لتكفير خطایاه، ورفع درجاته، وإنابته وتضرعه إليه، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين "انتهى من"مجموع الفتاوى" (11 / 260).

والرضا لا يبطل بمجرد التألم أو الحزن ، فإن الإنسان قد يتألم بمقتضى طبيعته البشرية ، وهو مع ذلك راض بما قدره الله وقضاه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

"اختلاج المصيبة في السر لا ينافي الرضا باتفاق العقلاء [أي: اضطراب المصيبة في نفس الإنسان] ، ولا يدخل هذا في التكليف ، فضلاً عن أن يكون ذنباً، أو أن يستحق صاحبه زوال نبوته" انتهى من "جامع المسائل" (4 / 75).

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

"وليس من شرط "الرضا" ألا يحس بالألم والمكاره ؛ بل ألا يعترض على الحكم، ولا يتسرّطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكره، وطعنوا فيه. وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكره، وهمما ضدان ؟

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم، وكراهة النفس له : لا ينافي الرضا، كرضي المريض بشرب الدواء الكريه، ورضي الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظماء، ورضي المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها" انتهى من "مدارج السالكين" (3 / 1888 - 1889).

ومعنى هذا أن الرضا بالمصيبة يكون من وجه ، ويكرهها ويتألم بها من وجه آخر .

ومما يقطع بهذا أن أفضل الخلق عند الله منزلة وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، حصل منه الحزن عند المصيبة.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "دَخَلْتَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيِّفِ الْقَائِمِ، وَكَانَ ظَلِيلًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلَتَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ - وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ -، فَجَعَلْتُ عَيْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذَرِّفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتَبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْعَيْنَ تَذَمَّعُ، وَالْقَلْبَ يَحْرَثُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمْخَرُونُونَ»" رواه البخاري (1303) ، ومسلم (2315).

فهذا صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم حزن على فراق ابنه إبراهيم ، ومن المقطوع به أن هذا الحزن لا ينافي الرضا ، لأنه حزن فطري جبل الإنسان عليه .

وهكذا كان حزن يعقوب عليه السلام .

قال الله تعالى : **رَوَّاَتْ لَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفًا عَلَى يُوسُفَ وَابْنِيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَالَّهِ تَفْتَأِ تَذَكَّرُ يُوسُفُ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** . يوسف/84 - 86.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى:

"كان يعقوب حزينا في الدرجة التي قد بيناها، ولكن حزنه كان في قلبه جيلاً، ولم يكسب لسانه قوله قلقاً يخالف الشريعة، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في ابنه في صحيح الخبر: (تدمع العين، ويحزن القلب، ولا تقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا بك يا إبراهيم لمحزونون). وقال أيضاً في الصحيح - صلى الله عليه وسلم -: (إن الله لا يعذب بدموع العين، ولا بحزن القلب وإنما يعذب بهذا وأشار إلى لسانه، أو يرحم)."

وهو تفضل منه سبحانه، حين علم عجز الخلق عن الصبر؛ فأذن لهم في الدمع والحزن، ولم يؤاخذهم به، وخطم الفم بالزمام عن سوء الكلام، فنهى عما نهى، وأمر بالتسليم والرضا لنافذ القضاء، وخاصة عند الصدمة الأولى.

وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: (إنما أشكو بشي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) من جميل صنعه وغريب لطفه وعائده على عباده "انتهى من "أحكام القرآن" (3/ 1104).

والله أعلم.